(٣٤) أبو تراب النخشبي[١]

ذكر أبي تراب عسكر بن حُصين النَّخْشَبي رحمه الله:

كان رحمه الله مُجتهدًا في الطريقة، مجرّدًا في الطريقة، مُجرّدًا عن طُرق البلاء، سيَّاحًا في باديةِ الفقر، حميدًا عند الطائفة.

وهو من كبارِ شيوخ خُراسان، وله في التقوى والمُجاهدة قدمٌ راسخةٌ، وفي الإشاراتِ نَفَسٌ عالٍ، وفي الكلمات مقامٌ سنيٌّ.

أقول: وقيل: إنه صحب حاتم الأصم، وأبا حاتم العطار البصري رحمهم الله.

مات سنة خمس وأربعين ومئتين. والله أعلم..

نقل أنه حجَّ أربعين حجةً، وما نام سنين، ولم يضعْ رأسَه على الوسادة. قال: لكن نوبةً في الحرمِ ثقلتْ عيناي من النوم في السجود، فرأيتُ طائفةً من الحور ظهرنَ عليَّ، فقلتُ: من مُشاهدة الغفور لا أَلتفتُ إلى الحور. قلن: إن لم تلتفتْ إلينا شمَّتَّ بنا نظراءنا من الحور. فقال: الرضوان هو اليوم لا يلتفتُ[٢] إليكنَّ، ولكن غدًا إذا استقرَّ في الجنَّةِ، وجلس على سرير الملك

---

(١) طبقات الصوفية ١٤٦، تاريخ أصبهان ٢/ ١٤٦، حلية الأولياء ١٠/ ٤٥ و٢١٩، تاريخ بغداد ١٢/ ٣١٥، الرسالة القشيرية ٦٥، طبقات الحنابلة ١/ ٢٤٨، الأنساب ١٢/ ٦٠، مناقب الأبرار ٣١٢، صفة الصفوة ٤/ ١٧٢، المختار من مناقب الأخيار ٢/ ٧، مختصر تاريخ ابن عساكر ١٧/ ٥٠، سير أعلام النبلاء ١١/ ٥٤٥، العبر ١/ ٤٤٥، طبقات السبكي ٢/ ٣٠٦، طبقات الأولياء ٣٥٥، النجوم الزاهرة ٢/ ٣٢١، نفحات الأنس ٧٦، طبقات الشعراني ١/ ٨٣، الكواكب الدرية ١/ ٥٤٢، شذرات الذهب ٢/ ١٠٨.

والنخشبي: نسبة لنخشب، وهي نفسها نسف من مدن ما وراء النهر بين جيحون وسمرقند.

(٢) في (أ): لا يتفرّغ إليكنَّ.

يلتفتُ إليكنَّ. ثم اعتذرن إليه ما وقعَ من التقصير، قال: قلت: إن أنزل الجنة يكون كذلك.

أقول: مراده أنه لا يقنع بالجنَّةِ، ولا يَرضى بها؛ بل يطمعُ في منزلةٍ أَعلى من الجنة، وهي المُشارُ إليها بقوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥] رزقنا الله تعالى بلطفه وكرمه. والله أعلم.

قال ابن الجلاء رحمه الله: صحبت ست مئة شيخ ما لقيتُ فيهم مثلَ أربعة، أوّلهم: أبو تراب النخشبي[١].

وقال: دخل أبو تراب رحمه الله مكَّةَ طيِّبَ النفسِ، فقلت: أين أكلتَ؟ قال: أكلتُ بالبصرةِ، وبالنَّباج[٢]، وهاهنا.

نقل أنه كان إذا رأى من أصحابه ما يكرهُهُ زادَ في اجتهاده، وجدَّدَ توبتَهُ، ويقول: بشؤمي دُفع إليه ما دفع، لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وكان رحمه الله يقول لأصحابه: من نبسَ منكم المرقعةَ فقد سأل، ومن قعد في خانقاه أو مسجدٍ فقد سأل، ومن قرأَ القرآن كما يسمعه الناس فقد سأل.

أقول: يعني إذا فعلَ هذه الأشياء فقد أبطلَ توكُّلَه، لأنَّ ذلك يوهمُ أنّه يحتاجُ له الناسُ، ومع ذلك يُظهر احتياجَهُ للناس، وذلك خلافُ التوكّل. والله أعلم.

نقل أن أبا تُراب نظرَ يومًا إلى صوفيٍّ من تلاميذه مدَّ يدَه إلى قشرِ بطيخ، وقد طوى ثلاثة أيام، فقال: تمدُّ يدَكَ إلى قشرِ بطيخٍ! لا يصلحُ لك التصوُّفُ، الزمِ السوق.

وقال: بيني وبين الله تعالى عهدٌ أن لا أمدَّ يدي إلى حرامٍ إلاّ قصرَتْ يداي عنه.

---

(١) والثلاثة الأخرون هم: أبو يحيى الجلاء، وأبو عُبيد البُسري، وذو النون المصري. طبقات الشافعية ٢/ ٣٠٧، وانظر طبقات الصوفية ١٤٧.

(٢) النَباج: موضع على عشر مراحل من البصرة. معجم البلدان.

قال يوسف بن الحسين رحمه الله: سمعتُ أبا تُراب رحمه الله أنه قال: ما تمنَّتْ نفسي عليَّ قطُّ إلاّ مرَّةً، تمنَّت عليَّ خبزًا وبيضًا، وأنا في سفري، فعدلتُ عن الطريق إلى قريةٍ، فوثب رجلٌ وتعلّق بي، وقال: كان هذا مع اللصوص. فبطحوني وضربوني سبعين خشبةً، فوقفَ علينا رجلٌ وقال: هذا أبو تُراب النَّخْشَبيُّ. فخلّوا عنّي، واعتذروا إليَّ، ثم أدخلني رجلٌ منزلَه، وقدّم إليَّ خبزًا وبيضًا، فقلت: كُلْهَا بعد سبعين جلدة، وقال: بحقِّ وفاء الإسلام إنَّه لم يمضِ عليَّ وقتٌ أَطيبُ من هذا الوقت، وكنتُ من زمانٍ أتمنَّى هذا لأرى نفسي بمُرادي، فرأيتُها اليومَ، ووصلتُ إلى مرادي.

نقل أنَّه ظهرَ في أيامه ذئبٌ يأكلُ الناس، وقد أكلَ كثيرًا من الناس، وعضَّ كم من أولاده، فجاءَ إليه يومًا، وهو على سجَّادته، فأخبروه، فلم يلتفتْ إليه، فتقرَّبَ الذئب إليه، ونظر، ولم يقصدْهُ، ورجع ومضى.

نقل أنه مع أصحابه مرَّ ببادية، فغلبَ عليهم العطش، وأيضًا كانوا يريدون الماء للتوضُّوءِ، فراجعوا إلى الشيخ، فخطَّ خطًّا على صورةِ دائرةٍ، وأشارَ إليه، فنبع الماءُ في الحال، فشربوا وتوضَّؤوا.

قال أبو العباس السيَّاري: كنتُ مع أبي تراب في البادية، قال بعض الأصحاب: عطشتُ. فضربَ الشيخُ قدمَهُ على الأرض، ففارت عينٌ، وجرى الماءُ، فقال ذلك الشَّخصُ: أشتهي أن أشربَ بقدحٍ. فضرب يدَهُ على الأرض، فظهرَ قدحٌ من زجاجٍ أبيضُ ما رأينا مثلَه، فشربَ الشيخُ رحمه الله وسقانا، وكان القدحُ معنا إلى مكّة شرفها الله تعالى.

قال: كنتُ بالبادية في ليلةٍ مُظلمةٍ سوداء، إذ رأيت شخصًا أسود طويلاً مثلَ منارةٍ استقبلني، ففزعتُ منه، وقلتُ: أجنّيٌّ أنتَ أم أنسي؟ فقال: أمسلمٌ أنت أم كافر؟ قلت: بل مسلمٌ. فقال: المُسلمُ يخافُ ممّا سوى الله!؟ فسكن قلبي بهذا الكلام، وعلمتُ أنّه مبعوثٌ من الغيبِ، فسَلِمَتْ نفسي، وذهب الروع.

قال: كنت بالبادية، فرأيت غلامًا بلا زادٍ ولا راحلة، قلت: لو لم يكنْ هو

على يقينٍ لهلك. ثم قلت له: تقطعُ هذه البادية بلا زادٍ ولا راحلة؟! قال: ارفع رأسَك يا شيخ ترَ غيرَ اللهِ أحدًا يَرزقُ ويعين؟ قلت: فاذهب أينما تريد.

ومن كلماته أنه قال: عشرين سنةً ما طلبتُ من أحدٍ شيئًا، ولا أَعطيتُ أحدًا شيئًا.

مارأيتُ شيئًا أضرَّ بالمريد من السفر على متابعة النفس والهوى، ولا وجدَ الفسادُ طريقًا إلى المُريد إلاّ بسبب الأسفار الباطلة.

قال: قال الله تعالى: واجتنبوا الكبائر[1]، ومن الكبائر الدعوى الباطلة، والإشارةُ الفاسدة، وألفاظٌ خالية عن الحقيقة. ثم قال: قال الله: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١] ولا تصلُ نفسٌ إلى رضا الله تعالى إن كانَ للدُّنيا في قلبها مثقالُ ذرّةٍ مقدار واعتبارٍ.

إذا كان العبدُ صادقًا في العمل يجدُ الحلاوة قبل العمل، وإن كانُ مخلصًا وجدَ الحلاوة في العلم[2].

تطلبون شيئين في الدنيا، ولا تجدونهما: السُّرورَ والراحة؛ فإنَّهما في الجنة.

و: سببُ الوصول إلى الحقِّ سبع عشرة درجة أدناها الإجابة ـ أي لله ورسوله ـ وأعلاها التوكّلُ على الله بالحقيقة.

و: التوكّلُ أن تُلقي نفسَك في بحر العبودية، وتُعلّقَ قلبَك بالله، إن أعطاكَ شكرتَ، وإن منعَكَ صبرت.

لا يُكّدرُ العارفَ بالله شيءٌ؛ بل الكدوراتُ كلُّها تصفو به.

و: من القلوب قلبٌ يحيا بنور تفهيم الله تعالى.

---

(١) كذا في (أ)، وفي (ب): قال الله تعالى: اجتنبوا كثيرًا من الظن واجتنبوا الكبائر.

وقوله: (اجتنبوا الكبائر) ليس في كتاب الله العزيز، وكأنه أراد قوله تعالى في سورة الشورى (٣٧): ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾.

(٢) في (أ): وجد الحلاوة في العمل.

و: لا شيءَ بعد العبادة أنفعُ من صلاحِ الخواطر.

و: احفظْ فكرَك؛ فإنه مقدّمةٌ لكلِّ شيءٍ، لأنَّه من صحَّ فكرُه يصحُّ بعده ما يجري عليه من الأحوال، ويصدرُ منه من الأفعال.

و: إنَّ اللهَ تعالى يُنطقُ العلماءَ في كلِّ زمانٍ بما يُناسبُ أعمال أهلِ ذلك الزمان.

حقيقةُ الغِنى أن تستغني عمَّن هو مثلك.

قال له شخصٌ: هل لك حاجةٌ أَقضيها؟ قال: كيف تكونُ لي حاجةٌ إليك أو إلى أمثالك، وليس لي حاجةٌ مرفوعةٌ إلى الله تعالى. لأنّه كان في مقامَ الرِّضا، والراضي لا حاجةَ له.

وقال: قوتُ الفقير ما وجد، ولباسُهُ ما ستر، ومسكنُهُ حيث نزل.

قيل: إنه ماتَ بالبادية، نهشته السباع، وقيل: وصلَ إليه جماعةٌ بعد سنين رأوه قائمًا مستقبلَ القبلة، يبسَ جلدُهُ على عظمه، وعنده ركوتُهُ وعصاه، ولم يصل إليه سَبُعٌ أصلاً.

رزقنا الله تعالى ببركتهم عيشَ الأبرار، وموتَ الأخيار؛ إنه كريم غفّار، رحيم ستّار.

* * *